

الكتاب السادس

وشرف الامبراطور أندرونيكوس — الذي عاد كما ذكرنا من روسيا — وأولاه كل أنواع العطف وقدم إليه كميات من الذهب، وبعث به إلى كليكية ليعالج الأمور هناك ويحقق الاستقرار [١١٦٦]، ومن أجل أن يتمكن من الانفاق والبدخ، منحه ضرائب قبرص، ومكث في المكان المعين له قليلاً من الوقت، ثم قام بجعل فيليبيا [الأنطاكية] خطيبة له وزوجة، وهذا شيء لا يسمح به قانوننا لأنها كانت أخت الامبراطورة، ثم تركها بدون أي سبب، وتحول إلى فلسطين [أوائل ١١٦٧] آخذاً معه كثيراً من أموال الامبراطور التي فرضها كضرائب وجباها من أراضي كليكية وقبرص.

والتقى هناك بثيودورا ابنة السيباتوكراتور اسحق، التي — كما ذكرنا — تزوجت من الملك بلدوين [الثالث]، والتي بعدما توفى وألت السلطة إلى أخيه، عاشت كأرملة في عكا، ولأنها كانت قريبتها، غالباً مازارها، وعقد محادثات خاصة مع المرأة، ومع الاستمرار بذلك أصبح مرتبطاً بها بشكل غير اعتيادي، بحب غير قانوني وغير مقدس، وبعدها جامعها وعاشرها حملها معه وذهب معها إلى أراضي المسلمين، وحملت منه وأعطته طفلاً فيما بعد، ثم إنه بعدما مرّ بعدد كبير من البلدان الأجنبية، دخل إلى الأراضي الشرقية للإيبيريين [الكرج=الجورجيين]، وذهب ثانية بعد وقت قصير إلى الأتراك وبصحبته المرأة، وقام هذا الرجل التعيس من هناك بغارات كثيرة ضد الأراضي الرومانية، وأخذ عدداً كبيراً من الرجال الأسرى، وحول أسلاب الحرب إلى الأتراك، ولهذا حكم عليه بالحرمان من قبل الكنيسة (١).

٢- وحدث في حوالي هذا الوقت [١١٦٠-١١٦٦] بحث بين البيزنطيين حول عقيدة المسيح، للأسباب التالية: كان هناك شخص اسمه ديمتريوس، وهو روماني المنحدر، جاء من لامب Lampe، وهي قرية آسيوية [قرب أتراميشن Atramyttion (٢)]، وقد درس — كما أعتقد — قليلاً من الثقافة العامة مع شيء من التعليم العلماني، ولكنه أمضى بالعادة وقته حول العقائد المقدسة، وتحدث بشكل مستمر بحماقات لانهاية لها، وبما أنه أرسل مراراً رسولاً إلى الغرب وإلى الشعوب الإيطالية، عاد من هناك بكثير من الحماقات، وتورط في أشياء غريبة، ولم يستطع بشكل خاص الاقلاع عن العبث والانشغال فيما يتعلق بطبيعة الرب، وهو موضوع غير مسموح بالخوض به إلا للمختصين ورجال الدين الرئيسيين وبالدرجة نفسها للأباطرة بحكم منزلتهم ومكانتهم.

وإثر عودته في تلك الآونة من الأراضي الألمانية، أكد أن الشعب هناك قد اتخذ بشكل واضح موقفاً خاطئاً، وكان في إحدى المرات يتحدث مع الامبراطور، فأثار مثل هذه المسائل، وعندما سأل الامبراطور عما يعنيه هذا، قدم لدى اجابته عرضاً كاملاً لعقيدته، وجاء كلامه كما يلي: «هم يتجرأون على القول إن الشخص نفسه [المسيح] أدنى من الرب، ومساوياً للرب الذي أوجده»، وعندما قال الامبراطور: «لكن لماذا؟ أولسنا ندعوه رباً وانساناً؟»، فقال: «نعم»، فقال الامبراطور: «إذن نحن نوافق على أنه أدنى بالنسبة لنا سوته، ولكنه مساوي بالنسبة للاهوته، ونسمع أن المخلص يقول هذا الشيء نفسه، حيث قال في أحد الأماكن «أبي أعظم مني أنا» (٣)، وإذا لم يتوجب تطبيق هذا على الطبيعة [اللاهوتية] (لأن ذلك لن يكون موافقاً بالبتة) عندما من الضروري توجب تطبيق هذه المقولة على [انسان] آخر، وقد قيل إن كل منهما لا يمكن التفكير به، ولذلك إن عقيدة النوع البشري سليمة، وذلك حسبما عرف جلالتنا منذ وقت طويل»، وقال الآخر — على كل — ثانية: «ومع

ذلك إنهم يتكلمون بشكل مكشوف بدون تقوى»، وعلى هذا الشكل أنها المناقشة، لكن بعد وقت قصير وضع ديمتريوس أفكاره في كتاب قدمه إلى الامبراطور، وقال له مانويل: «إذا كان من الممكن دفن هذه الأشياء تحت الأرض، ادفنها على الفور، خشية أن تكون بها سبب تدمير كثير من الناس، لأنه بالنسبة للرأي القائم الآن، أنا متمسك به بشدة، ولا أعتقد أنه سيكون بإمكان أي كان أن يزحزحني عنه بسهولة».

وعلى كل حال أصبح الآخر أكثر جرأة، ونقل أفكاره وأوصلها إلى الناس: إلى الأفراد، وإلى الجماعات، ثم أوصلها إلى عدد كبير من الأساقفة، وإلى الذين يشكلون طبقة اللاويين الذين ندعوهم شماسة، وعندما وجد كثيرين يوافقونه، تنفس الصعداء، وتكلم بشكل مكشوف ضد الذين كانوا بشكل ما أقل اهتماماً به، وقام بتطوير وتوسيع مناقشاته إلى حجم كبير، ولم يكن هناك أي واحد لم يتكلم آنئذ عنها وقام بالبحث والاستقصاء حول أي عمل حدث أن قام به، وعندما علم الامبراطور بهذا تردد، ثم اتجه نحو عرض المسألة أمام مجمع ديني للنظر فيها، وعامل القضية بشيء من الحذر، فلدى ملاحظته أن الغالبية كانوا تقريباً يميلون نحو موقف ديمتريوس، استقبلهم واحداً واحداً، ثم اثنين اثنين، ثم على شكل جماعة كبرى، ولقد تفحص الذين قالوا، وبذلك استطاع أن يحول كثيراً منهم إلى العقيدة الأخرى الصحيحة، وذلك لأنهم كانوا غير قادرين على المناقشة ضده.

ومع أنه لم يكن لديه خبرة في تداريب المنطق، استطاع بذكائه وبسعة ثقافته أن يتفوق على كل واحد عاش في أيامنا، ولم يكن هناك انسان ينكر هذا، ليس فقط بين الذين تعايشوا مع الامبراطور عن قرب (بما يدفع المرء إلى التشكيك بأنهم يبالغون) لكن حتى من قبل الذين كانوا معروفين من قبله، وكان إذا ما رغب في شرح شيء ما، كان يقدم عرضه بحكمة غير اعتيادية، مع وضوح وبساطة بالعرض، ولم يكن هاماً بالنسبة

له نوع الفلسفة التي اعتمد البحث في المسألة عليها، سواء أكانت طبيعية أو لاهوتية، أو من أي نوع آخر، ذلك أنه شغل نفسه كثيراً بالثقافة اللاهوتية وغير الدينية، مع أنه بالكاد كان بإمكانه توفير الوقت لانشغاله المستمر بالأعمال العسكرية، وهكذا نجح بذكائه وبقدرته الطبيعية — كما قلنا — فربح إلى جانب موقفه عدداً كبيراً ممن قابله.

في البداية لم يكن هناك من أحد ليس مشاركاً في الموقف ضده باستثناء لوقا، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن المسائل اللاهوتية، غير أنه لم يتجرأ على الكلام بحرية، ومعه ليس أكثر من ستة من الشمامسة، ولدى ملاحظة البقية أن كثيراً منهم تخلوا عن مواقفهم اللاهوتية إثر المناقشات الفردية مع الامبراطور، ولتوقعهم انه بعقله الرائع ولسانه البارع سيتمكن من جذب عدد كبير منهم إلى نفسه من خلال المقابلات الفردية، لذلك اتخذوا قراراً بعدم الالتقاء بالامبراطور فردياً أو بشكل خاص: «ومن يفعل ذلك سيكون الآن، وكذلك بعد موته خاضعاً للحرمان الكامل»، فهذا ما قالوه لدى عقدهم اجتماعات في بيوت بعضهم، لاسيما في بيوت الشخصيات البارزة بينهم.

ولم يكن الامبراطور عارفاً بهذه الأمور، إلى أن دعا يوثيموس إلى زيارته زيارة خاصة، وكان آنذاك أسقفاً [مطراناً] لني باتريا Neai Patrai [هيباتي قرب لاميا] (٤١)، فسأله عما قيل، ورجب أن يدرس العقيدة معه، غير أنه أغلق شفثيه ولزم الصمت، وعندما سأله الامبراطور عن سبب صمته، أجابه في أن وضع أمامه الحكاية كلها، فغضب وأقدم على تهديده [مع أنه اعتاد في جميع الظروف أن يحافظ على هدوئه وألا ينفعل]، لقد هددته في رمية من فوق شاهق، إذا كانوا يعملون على تغيير العقيدة الصحيحة المتعلقة بالرب، واتهمه بذلك، لكنه مالبت أن غير عقله قائلاً: «بناءً عليه إنك ستقوم أولاً بفهم من أنت وكيف تفكر حول الرب، أنت الذي رميت بالشكوك حولي، (لكن مع انني أهنت، إنني

أكبح نفسي، خشية مني أن أقوم بعمل ما بالوقوف ضد الأوثودكسية، ذلك أن هناك عدداً كبيراً من الكتب الجيدة مقابل السيئة لنقل مترادفات الأمور المؤكدة التي ينطلق منها كلا الفريقين)، سلح نفسك حتى تكون قادراً على مبارزتي، فأنا دون الآخرين، سوف أتصدى لك، ليس بقوة السلاح، بل بفعالية الكلمة، لأنه بغض بالنسبة لي أن أقهر من هو أدنى مني، وهذا العمل هو شاهد، وكما ترى، إنني مع أنه من الواضح قد تعرضت للاهانة، إنني موقف انتقامي، ومع هذا ينبغي ألا تستخف بهذه المسائل وتزيحها جانباً، لأنه من الذي يحجر عليك؟ من الذي أزال حريتك بالكلام؟ متى طردت من قبلي وأنت تتكلم أمام المنبر؟ ما الذي سأربحه إذا ما قمت بالدفاع عن عقيدة فاسدة؟ ثم إنه خشية مني أن أسوء إلى عقيدتي بكلمات، وهو شيء حدث لكثيرين بينكم، (في الحقيقة انني لم أعتقد قط بمثل هذه الأشياء) يبقى تماماً إنه ينبغي عليّ ألا أخون عقيدتي المتعلقة بالرب، ومع هذا إذا ما تحدث انسان ماتبعاً للكتابات المقدسة، وكان قادراً على أن يغير رأبي، لن يكون مخجلاً بالنسبة لي قط تغيير آرائي، وأبق هذا الشيء محتاطاً بشأنه: أن لا يكون الرب موضع سؤال، ولهذا الغاية تحملت أنا نفسي، مراراً كثيرة الاهانات.

هكذا مضت الأمور هناك، وبعد مضي عدة أيام، قدم عدداً كبيراً من الكتب تحدثت بوضوح حول هذا الشأن، ووضع القضية أمام مجمع ديني للبحث فيها [١١٦٦]، وأخذت أعداد كبيرة من الفئات المتصارعة تتلمص من لحظة إلى أخرى، حتى بات الجميع مع الرأي نفسه مع البطارقة الآخرين، ووافقوا على أن الامبراطور قد جمع أهداف الكتابات المقدسة، ومع هذا كانوا غاضبين جداً على لوقا، واستخفوا به وأهانوه، ونادوا بخلع هذا الانسان وطرده من عرشه، لعلمهم أنه عالج المسائل بشكل لا معرفي تماماً، واعترفوا أنهم هزموا بوساطة موقف لوقا، لأن هذا الموقف عرض قبل موقف الامبراطور، ولأنهم هزموا من قبلها [البطريك

والامبراطور]، أرادوا توجيه التهمة حول أمور أخرى، وهنا لاحظ الامبراطور — كما أعتقد — أنهم يقاتلون لوقا بأسباب موبوءة، فقال: «دعوا هذا يبقى سرياً لبعض الوقت، فعندما تظهر محصلات القضية الحالية، سنقوم بتفحص هذا الأمر، وسوف نطبق عليه ما يستحقه من جزاء».

وهكذا هزمهم على أساس هذه القواعد، وتمّ الاعلان عن استمرار العقيدة وصحتها، وأمر الامبراطور بكتابتها، ثم أمر بعد ذلك بنقش النص على حجر، وضعوه بكل سرعة في آيا صوفيا على يسار الداخل، وهكذا تحقق لهذا البحث نهايته (٥).

ولقد فكرت دوماً حول هذه الأشياء، فوجدت أنه لا يمكن لانسان حي أن ينجو من اللوم عندما يعث في طبيعة الرب، ومع هذا إنني مصاب بالدهشة بشأن ما روي لي فيما يتعلق بهذا الامبراطور، فقد حدث مرة، عندما كان يبحث بهذه المسألة (لأن القضية ظلت تناقش بين أخذ ورد لمدة ست سنوات) جاء إليه واحد من المتعلقين بالبيت الامبراطوري، وروى إليه بكل هدوء أن الامبراطورة عانت من اجهاض، وأن ما أسقطته كان ذكراً، وهنا لم يظهر عليه أي أدنى تأثر بما روي له، ولم تبد آلامه على مظهره، بل ظلّ مصغياً متنبهاً لما كان يقال، لكن عندما انتهى البحث حول المسألة المطروحة، انتصب قائماً، ثم ألقى بنفسه على أقدام الكهنة، وقال: «أيها الآباء المقدسين، وصلني للتو خبر من جناح النساء يقول: إن طفلاً ذكراً — وهو أعظم آمالي — قد ولد في غير وقته، إنني أطلب من قداستكم، الدعاء إلى الرب، افعلوا ذلك، أرجوكم، وإذا كنت قد تبنيت في هذا الصراع المقدس الجانب الخاطيء، ليجعل الرب ذريتي تلد مجدداً في غير أوانها، مهما كان نوع المولود، ولأحرم من التمتع بنيل آمالي، لكن إذا كان موقفي يرضي الرب، ليمنحني هذا الأمل بعد وقت قصير»، وما ان أكمل حديثه، حتى نهض من على الأرض، غير أن

كل واحد من الآخرين ركع ودعا إلى الرب ورجاه والدموع تنهمر من عينيه، وعلى هذه الصورة غادروا، هذا ولم يمض وقت طويل حتى رزق الامبراطور ولداً ذكراً، وكان قطعة من النعمة، ووردة من الطبيعة، هذا وإنه في اللحظة المناسبة سيكون ممكناً لروايتي أن تصف أي نوع من الأشخاص كان (٦).

وهكذا وعلى هذه الشاكلة انتهت هذه الخلافات، وبما أن لوقا لم يقدم ضده أي اتهام جدير بالملاحظة، فقد بقي على عرشه، لكن جون الذي شغل المنصب الديني الرئيسي في كيركيرا Kerkyra ، وواحد من الرهبان، الذي كانوا يلقبونه بـ«إيرينيكوس Eirenikos» اللذان ظلا متمسكين بعقيدتهما القديمة، قد تعرضا للحرمان، وطردا واحداً تلو الآخر من التنظييات الكهنوتية (٧).

٣- ثم تحركت الأمور من جديد، تلك الأمور التي عرفت الاستقرار، فقد أرسل ملك الهنغار دايونيسيوس (٨) Dionysius ، وكان واحداً من الارستقراطيين في بلاطه، وصاحب خبرة حربية نالها من خلال عدد من الحروب، أرسله للاستيلاء على سيرميون بوساطة جيش كبير [١١٦٦]، وعندما علم القادة الرومان بذلك، وضعوا خططهم حول المسألة، غير أن الخطط التي تشاوروا حولها لم تنجح، لأن المتشاورين لم ينظروا إلى ما كان مفيداً للرومان، بل نظروا إلى كيف يمكن لأحدهم أن يخدع الآخر، خاصة كل من الميخائيلين: الذي كنيته غبراس، ورتبته دوق تلك المنطقة، وبراناس الذي تولى منفصلاً قيادة الجند، فكلاهما كانا مقاتلين، لكن براناس كان بالحري هو الأقوى، وعندما بدا للمشتاورين أن الأفضل مهاجمة دايونيسيوس ليلاً، انطلقوا وزحفوا بكامل القوات، وعندما وصلوا إلى معسكر دايونيسيوس، وجدوه فارغاً تماماً من الرجال، لذلك بدأوا يشعرون بالخوف، لأنه في أراضي العدو، إذا كان المكان مهجوراً، وخدماته المعتادة مفقودة، ذلك كان كافياً للتأثير على الروح

المعنوية للجند.

وفي محاولة منهم لتتبع آثارهم، تقدموا نحو الأمام، وقد تهيأ لهم انجاز شيء بسرعة، لو أنهم هاجموا الهنغار على الفور، وبما أن ضوء النهار بات واضحاً، فقد رآهم الهنغار، وبدأ فرسانهم بإنشأ القتال ضد المعسكر الروماني (لأنهم كانوا منطلقين من أجل الرعي)، ولذلك شكلوا صفوفهم، وهاجموا الذين اعتادوا على الوقوف أمام الخيم، ولدى ملاحظة الهنغار أن الرومان كانوا يركضون بلا نظام وفي فوضى عظيمة (لتعرضهم لهجوم الهنغار الذين كانوا خيالة، فإن الجزء الأكبر منهم قد تفرق) حملوا [الهنغار] عليهم وبعدها أرغموهم على ادارة ظهورهم، كانوا قادرين على مطاردتهم وسوقهم أمامهم حتى أدخلوهم في وسط قطعة رومانية كانت قادمة من المؤخرة، واضطرب أمر هؤلاء، وانعطفوا بغية الانسحاب، ثم انهم هربوا بسرعة كبيرة، معتقدين أنهم هوجموا من قبل قوة أكبر بكثير من الجيش الذي رأوه معهم، وبدا لهم، لأنه في مثل هذه الظروف يستطيع فقط قلة من الناس فهم واستيعاب الحقيقة.

وبما أنهم كانوا هارين بكل سرعة فقد أصابهم الإعياء، ولذلك توقف القائدان لبعض الوقت ومعها الرايات وقليلاً من أتباعهما، طانين أن الرومان سيتجمعون ثانية، لكن بما أنه لم يلتحق بهما أحد من أي اتجاه، أدارا أيضاً ظهريهما، وحدث آنذاك أن استدار براناس وطعن واحداً من الأعداء برمح، في حين تابع القائد الآخر فراره، وهنا ظهرت بوضوح قضية خلافهما المتقدم في الاجتماع، لأنه عندما عاد براناس والتحق بغابراس الفار، سخر منه وقال مستخفاً به: «ثم انك توافق معي أيها السياسيستوز كما تعلم أنني قاومت الأعداء، وقاتلتهم بالرمح»، وعندما وافق الآخر، تابع يقول:

«لكن بحق رأس الامبراطور، إنني لم أرك إلا أثناء التراجع»، وهكذا

كان ذلك اليوم فريداً بالنسبة للرومان دون أن يحقق لهم مراح عامة، لكن بذلك يمكن للمرء أن يرى باعجاب، أنه تولى القيام بكل مهمة.

ولم يقتل المطاردون الهنغار عدداً كبيراً من الرومان، ولم يأخذوا كثيراً من الأسرى، لأن رعباً عظيماً استولى على الرومان، ويمكن استخلاص ذلك ومعرفته مما يلي:

قام فرد من وحدات المشاة بالفرار طوال الطريق حتى التجأ إلى زيغمي، ولم يوقفه طوال الطريق أحد من الرومان، وهكذا رحلوا ببطء، ثم عزم دايونيسيوس على اعلاء أهمية ما قام به، فجمع أجساد عدد من الذين قتلوا، وأقام نصباً كبيراً فوقهم، مقدراً أن حجم المذبحة يمكن تعويضه بحجم الصرح (٩) المقام.

لقد سارت الأمور هنا هكذا، غير أن الامبراطور أثاره التهديد، ورجب في حرب الهنغار بنفسه، ورجب أولاً في عرض قدرات الرومان أمامهم، فخطط في سبيل ذلك كما يلي:

أرسل إلى الدانوب ألكسيوس [أي بيلا أخو ستيفن ملك هنغاريا] الذي كان قد زوجه من ابنته، ومعه قوات كثيرة، كان ألكسيوس البروتو استراتور يقودها واستهدف من ذلك اعطاء الهنغار توقعاً أنه سوف يهاجمهم مرة ثانية عبر المناطق المعتادة، وأمر بالوقت نفسه ليو الذي كنيته باتاتزس Batatzes ، الذي كان يقود قوات من الخارج ضمت أنواعاً كثيرة كان من بينها الـ«الفلاش» Vlachs الذين كانوا — كما قيل — مستعمرين من شعب ايطاليا، أمره بالانقضاض عن طريق المناطق القريبة مما يعرف بيوكسين Euxine البحر [الأسود] حيث لم يتقدم لأحد من قبل أن هاجمهم، وهكذا وصل ألكسيوس [بيلا] والجيش الروماني الآخر إلى الدانوب، فأدخلوا بذلك الرعب إلى قلوب الهنغار، خشية أن يقوموا بالجواز من هناك، وفي ذلك الوقت كان باتاتزس، يوجه

ضرباتهِ من ذلك المكان حيث تولى نهب كل شيء بدون رحمة، واجتاح كل شيء واجهه، ثم تولى قتل عدد كبير جداً من الناس، ولم يكن الذين أخذهم أسرى أقل عدداً، يضاف إلى هذا أنه عندما عاد إلى الامبراطور، ساق أمامه قطعاناً من الماشية والخيول مع كل نوع من أنواع الحيوانات الأخرى.

ورغبة من مانويل في انزال ضربة ثانية بهم، أرسل ثانية جيشاً ضدهم، وأمره أن يقاتل من أماكن أكثر علواً الهنغار الذين عاشوا على مقربة من روسيا، وقاد هذه القوات أندرونيكوس لامبارداس ونقفور بتراليفاس مع عدد كاف من الآخرين، ومع هذا جعل جون دوكاس السالف الذكر مراراً مسؤولاً عن الجميع، وبعدما مروا خلال بعض المناطق المتعبة والوعرة، مضوا من خلال مناطق كانت خالية تماماً من الناس، ثم انقضوا على هنغاريا، ولقد استولوا على كثير من القرى المكتظة بالسكان، وجمعوا كميات عظيمة من الغنائم وقتلوا كثيراً من الناس، لكن الذي أخذوه من الأسرى كان أكثر، وعندما باتوا على نية العودة من هناك أقاموا صليباً من النحاس كتبوا عليه العبارات التالية:

هنا قامت العصبة الأرسية Ares والايطالية

بذبح عدد لا يحصى من قبائل العرق البانوني Pannonian

عندما كان مانويل النبيل يحكم روما الشهيرة

فخر الملوك الحكماء من الكومنينين (١٠)

٤- وبينما كان هذا يحدث، جاء هنري دوق النمسا ومعه زوجته ثيودورا ابنة أخي الامبراطور، إلى سارديكا، وذلك من أجل مصالحة فردريك، ملك ألمانيا مع الامبراطور، ولطلب إقامة هدنة في الحرب مع الهنغار [١١٦٦]، لأنه — حسبما تقدم ورويت — كاد فردريك أن يقترب

من فقدان حكم روما، وذلك منذ أن بدأ الامبراطور نشاطاته ضده، لاسيما عندما وافق أسقف روما على العودة إلى الاستخدامات القديمة (١١)، وقد وعد فردريك بأشياء كثيرة ضد ارادته، لأن الناس هبوا هناك لحمل السلاح والقتال ضده، نتيجة للضغوط الصادرة عن الامبراطور، ولذلك حدث قبل وقت قصير، أنه رغب في كسب ود الامبراطور، ذلك أنه كان في ضيق شديد، ولذلك كتب له وتناقش معه، بطريقة ودودة، وأعلن — كما ذكرنا — عن موافقته على التعاون معه ضد الهنغار.

وعندما — على كل حال — تحولت اتفاقية مانويل مع البابا بشأن الحكم في روما إلى الافلاس، بسبب أن الامبراطور أصرّ على بقاء عرش روما في بيزنطة، رفض البابا قبول هذا، وطلب بحكم روما لنفسه، هنا استرد فردريك مكروه وخداعه، وأظهر من جديد دهاءه، وبالنظر لعزمه على غزو الأراضي الرومانية، بدأ بحماسة بربرية، بتوزيعها بين أتباعه، ولأنه لم ينجح من قبل في خططه الأخرى، بسبب معارضة الامبراطور له، فقد لجأ إلى استخدام سفارة هنري وأوتو صاحب وتلسباك Wit-telsbach، وخطط بالتظاهر بالصدقة أن يقنع الامبراطور بالتخلي عما كان يقوم به ضده، فبذلك يمكنه أن يستعد بسهولة للحرب ضد الرومان، وقدر الامبراطور جهود هنري وعاملة بشكل لطيف، ووافق على طلبه من أجل هدنة في الحرب ضد الهنغار، لكنه لم يتوصل إلى نتيجة نهائية فيما يتعلق بفردريك، وعندما كان هنري في طريق عودته إلى بلاده، أقنع ستيفن — الذي رفض الزواج من فتاة روسية — أن يتزوج من ابنته، ولقد حدث هذا بالفعل.

ولم يمض وقت طويل حتى خطط الهنغار إلى سلبنا دلماشيا من جديد، فأرسلوا قوى مختلفة إلى هناك، كما وبعثوا الذي يحمل رتبة بان Ban (١٢)، بينهم (ويعني هذا الذي سيمتلك السلطة بعد الملك في

الدولة)، وبعدهما أخفقوا بالتغلب على الرجال الذين كانوا هناك قتلاً، انسحبوا، لكن بعدما حملوا قسراً معهم كالوفيس [الدوق] وجعلوه تحت سلطانهم، أما كيف حدث هذا لنقفور [كالوفيس] فسأحكيه فيما يلي:

فهو عندما علم أن القوات الهنغارية كانت تحارب تلك المنطقة، جمع قليلاً من جيشه، وخرج من مدينة سبلت، غير أنه ما ان زحف قليلاً، حتى تخلى عنه أتباعه قليلاً قليلاً، وسببوا بذلك وقوع الرجل أسيراً بكل سهولة في أيدي الأعداء، فقد طوقوه بعدما قام بأعمال فيها بطولة وشجاعة، وأخذوه أسيراً.

٥- عندما سمع الامبراطور بهذا، عاد إلى بيزنطة، عازماً على أن يغزوهم في الربيع بحملة أكبر، وفي الحقيقة هو لم يكن قادراً على الذهاب إلى هناك في موسم الحملات التالي، فقد أعاقه قطعة من سوء الحظ، ما الذي كانت هذه؟ الرواية التالية سوف توضح ذلك:

مضى شتاء [١١٦٦-١١٦٧]، وعندما زال الطل أوقف نفسه على بعض التمارين المفيدة، وهي تمارين اعتاد الأباطرة وأبناء الأباطرة على ممارستها منذ وقت طويل مضى، وكان عدد من الشباب يقومون بتقسيم أنفسهم بالتساوي، ثم يرمون بكرة من الجلد تقارب بالحجم تفاحة، وكانوا يلقونها على بقعة مستوية، تبدو لهم مناسبة عندما يتولون قياسها، وحيث أن الكرة كانت تمكث ملقاة على الأرض في الوسط وكأنها جائزة، كانوا يطلقون خيولهم نحوها بسرعة كاملة، ويتوجه كل واحد ضد الآخر، ويمسك كل واحد منهم بعضا ذات طول مناسب تنتهي على شكل شعب فارغ، مقسم في الوسط بوساطة أوتار لحمية، جفت مع الأيام، وتداخلت فيما بين بعضها بعضاً لتشكل ما يشبه الشبكة، وكان كل جانب يسعى بسرعة عالية جداً لجرف الكرة ولنقلها أولاً إلى الطرف الآخر، الذي يكون قد عين لهم منذ البداية، وكلما جرفت الكرة بوساطة

العصا، ووصلت إلى إحدى النهايتين، فقد عدّ ذلك انتصاراً للطرف الذي أوصلها، وكانت هذه الرياضة خطيرة جداً ومرعبة، فقد كان من الضروري لكل مشارك بها أن يتحرك على ظهر مطيته إلى الأمام وإلى الخلف، وكذلك أطرافه يمنة ويسرة، وأن يقود فرسه ويجعله يدور حول نفسه، وأن يساهم في كل نوع من السباق، مما احتاج إلى عدد كبير من أنواع الحركات وذلك مسايرة لحركات الكرة.

وكان الامبراطور مغرمًا بهذا النوع من الرياضة، لكن حدث أن كبا حصانه ووقع فوقه على الأرض بكل ثقله، وتحمل ثقل الحصان فوقه وجهد كثيراً للقيام من سقطته، غير أنه لم يكن قادراً على أن يبعد الحصان عنه، بعد أن بات تحته، فقد قبع فوقه — كما ذكرنا — بكامل وزنه، ولذلك جرح جرحاً بليغاً في طرفه، وكذلك بذراعه الذي التوى بشكل سيء بسبب من ردائه، ولقد تحمل ذلك كله بشجاعة، مع أنه تألم من ذلك ألماً شديدة جداً، وعندما تجمع حوله عدد كبير من الناس، نهض مسرعاً، وقفز على ظهر حصانه ثانية، وقام ببعض الدورات بشكل بطيء بما فيه الكفاية، وذلك حتى شعر بالآلام مبرحة فمضى إلى الفراش، وإثر ذلك قهره الوجد وغاب عن وعيه، ولم يعد يتذكر الغد، ثم ما قيل وما فعل.

هكذا كانت الأوضاع، لكن بعد مضي يومين تحسن، فذهب إلى أباميا (١٣)، ثم انه بسبب الرحلة — كما يبدو — ومتاعبها، عاد التورم ثانية، ورجعت إليه نوبات الآلام، وقد أمضى عيد الفصح [٩ نيسان ١١٦٧] في سيليمبريا [سيليفري]، وعندما شعر بالتحسن ذهب إلى فيلبه، وتباحث هناك مع رسل جاءوا من عند الهنغار، وعندما رأى أنهم لا يمتلكون شيئاً مفيداً لتقديمه، سوى أنهم كانوا يجهدون بكل وسيلة للحصول على هدنة ولتعليق الحرب، قام بصرفهم وإعادتهم خائبين، غير أنه بعث معهم واحداً من الرومان، ليتقصى حول كالوفيس،

وليهدد [اسطفان الثالث] انه إذا لم يحترم الاتفاقية ويحافظ باستقامة عليها، سيكون من الممكن رؤية الامبراطور والجيش الروماني ثانية، ووصل إلى سارديكا، وقام هناك بتجميع قواته.

٦- وعندما كان مقيماً هناك وقعت واقعة كانت كما يلي:

كان ألكسيوس الذي شغل منصب بروتوستراتور— كما أشير إلى ذلك مراراً من قبل— يعمل في سبيل ثورة، فأدين بعدما كشف أمره، وحلق شعر رأسه، وبعدهما جرى وضعه بين الرهبان، اقتيد بعيداً إلى واحد من الأديرة الجبلية، التي انتشرت بأعداد كبيرة في جبل بابيكيون Papikion على نهر ستريمون Strymon [ستروما]، وقد أقام هناك بعض الوقت ثم توفي.

لكن لماذا، ولأني سبب وصل هذا الانسان إلى هذا النصيب، دعونا نوضح ذلك الآن: عندما كان قد سافر فيما مضى إلى كليكية، وذلك إثر تعيينه قائداً عاماً للحرب هناك من قبل الامبراطور، قصد السلطان في قونية، وكسب بشكل سري صداقته، وتباحث معه حول أشياء كثيرة في اتجاه القيام باغتصاب العرش، وقد تسلم منه رسائل، وبعث إليه بأجوبة كتبت حول اتفاقيتهما، وبعد هذا توجه إلى كليكية، ثم عاد لبعض الوقت فيما بعد إلى بيزنطة، وهنا عندما عزم على تزيين مسكن له في الريف بمواد تجميلية لجدرانه، لم يصور على هذه الجدران المفاخر الاغريقية القديمة، كما انه لم يصور أفعال الامبراطور، والأشياء التي حققها في الحروب أو في صيد الحيوانات، كما جرت العادة بالغالب للذين شغلوا مناصب حكومية عالية.

فلقد نازل [مانويل] وقاتل بشكل طبيعي وحوشاً كثيرة، بشكل لم نسمع له بنظيرين بني البشر، وخشية مني أن أبتعد عن أحكام المؤرخين، دعوني أذكر فقط بعض انجازات مانويل وبراعته، ففي وقت

كان في حوالي الانقلاب الشتوي، حيث تراكمت كميات من الثلوج على الأرض، إلى حد لم تكن فيه الوديان والشعاب الجبلية مغطاة فقط، بل الأجساد كانت أقرب إلى التجمد بسبب شدة البرد، وحدث في الحقيقة أن جميع الحيوانات التي لم يتوفر لها مكان تختبئ به، أن خرجت من الأماكن الكثيفة، واندفعت فوق الثلج على شكل جماعات، ولقد كانت قطعان من الطيور غير قادرة على استخدام أجنحتها (لأن الجليد ربط فيما بينها وأمسك بها مثل القيود، مثلما كان من الممكن رؤية ذلك في حالات صيد الطيور) وكذلك سارت على أقدامها بدلاً من أجنحتها، وباتت عرضة للصيد من قبل الوحوش والانسان وذهب الامبراطور للصيد في إحدى المناطق الشرقية، التي اسمها داماتريس (١٤) Damatrys وبينما كان مشغولاً بنشاطاته، واجهه وحش جبلي كبير، ولم يكن هذا الوحش أسداً، ولم يكن فهداً، ذلك أن حجم الأسد وشكله يمنع هذا التشبيه، لقد كانت له طبيعة مضاعفة، فلقد تجمع فيه كل من الفهد والأسد، وهكذا كان أسداً وفهداً معاً، كان وحشاً خيفاً فيه صفات مزيجية، لقد كان مربعاً في شجاعته، مقداماً في اربعابه، وكل السمات التي تعود إلى كل من الأسد والفهد فيه اجتمعت، لقد كان هذا الوحش على هذه الشاكلة، وهربت غالبية الذين كانوا حول الامبراطور عندما رأوه، لأن منظره كان غير محتمل بالنسبة لكثير من الناس، وعندما بات قريباً، لم يكن هناك من أحد للتصدي له، لكن أثناء فرارهم، سحب الامبراطور سيفه الذي كان مسلحاً به، واندفع نحو الأمام ليضرب الوحش، وأصابته ضربته مقدمة رأس الوحش وظلت ماضية حتى وصلت إلى الصدر، فهكذا كان الامبراطور في الصيد.

وفي عودة إلى الموضوع الذي استطرقت منه، أهمل نقفور، هذه الموضوعات، وبدلاً عن ذلك أثبت شواهد تخلد أعمال السلطان العسكرية، وبعنون صور بشكل علني في مسكنه، ماتوجب عليه أن

يخفيه في الظلام، وعلم الامبراطور بهذا، ومع ذلك غالباً ما استقبله في مباحثات خاصة، وسمع منه نصائحه، وكان راغباً في أن يبعده عما كان يسعى إليه، لكن هذا الرجل تمسك بشدة بخطته، وغالباً ما كان يدعو إلى الاجتماع به رجلاً، من أصل لاتيني، غير أنه كان ساحراً ومتفوقاً في أعمال الخداع، وكان يتحادث معه بشكل مكشوف، ويخططان للمؤامرات مرعبة، وتمركزت المؤامرات حول كيفية ابقاء الامبراطور بدون وريث، وقد اعتاد على أن يتسلم كثيراً من العقاقير من هذا الساحر لتستخدم لهذه الغايات، ولم يتوقف هذا التعيس عن ممارسة هذه الأشياء، ولذلك لامة الامبراطور من جديد، وبين جنونه، وتظاهر بالأسف، غير أنه ظل هو نفسه، لأنه بعد مضي بعض الوقت، عاد من جديد إلى ذلك الساحر، وأخذ يبحث معه المسألة نفسها.

ثم انه التقى بقسطنطين دوكاس، الذي كان نفسه متزوجاً من ابنة أخي الامبراطور (١٥)، فقال:

«سيدي النبيل، إذا كان يوافقك أن نتشارك بهدف واحد، اعلم أنه مامن أحد سيكون قادراً على قهرنا»، وطبعاً هو لم يقل هذا بشكل واضح تماماً، إنها بشكل يمكن فيه تمييز هذا واستخلاصه منه، والتقى كاسيونوس مرة بالكسيوس، بعدما لاحظ أنه أخفق بدون قصد وانكفاً عندما كان في حملته في هنغاريا مع بيلا، وشرع في اثارته فيما يتعلق بهذا الموضوع، وبعد ذلك استقبل الكسيوس الرجل على انفراد فقال:

«هل تعلم لماذا أبعدت نفسي كثيراً عن الحروب؟ لأنني أمتلك شفقة كبيرة على بني البشر»، وعندما انتقده الأخير على هذا القول، قال بدون وجل من أي شيء يمكن أن يحدث: «إن الامبراطور يرغب في تدمير القوات الرومانية، فقد أمرني أن أندفع وأتقدم بقوة في المعركة، لكن إذا أبقيت ماسمعه مني سراً، ستكون صديقاً لنا»، هكذا قال وأكثر، لكن

كاسيونوس أخبر الامبراطور بذلك.

لقد كان هذا ما حدث من قبل، لكن ما أوصل الأمور إلى الانشغال الكامل كان شيئاً هو كما يلي:

كانت هناك قوة من الكومان اكرتت للعمل مرتزقة في خدمة الرومان، وقد سببت هذه الفرقة في البداية بعض المشاكل التي تعلق بالدفن إليها، ثم تمّ ارضائها، لكن البروتوستراتور التقى بالكومان سراً، وأقنعهم بالمال بالتظاهر بالعودة إلى أرض آبائهم وانهم عند منتصف الليل، يقومون بمهاجمة خيمة الامبراطور بحشدهم، وينشبون القتال، وكان هذا في الحقيقة ماتقرر وخطط له، غير أن صبياً صغيراً من الذين كانوا يخدمون في خيمته، ذهب بعدما عرف بالمؤامرة مسرعاً إلى الخصي توماس، الذي كان يحظى آنذاك برعاية الامبراطور العالمة، وحذره من الخطة، وحمل الخصي الحكاية كلها إلى الامبراطور، ثمّ قدم إليه الطفل، وكان الامبراطور حتى الساعة رافضاً أن يصدق ما قيل له، حتى جاء الفجر، وبدأ الكومان بالانسحاب بدون سبب، واستطاع الامبراطور اقناعهم ببعض الوعود، وعندما نجح في ابقائهم، أرسل بعضاً منهم لاعتقال ألكسيوس بالحال، وبسرعة قصوى بات الشقي سجيناً، ثم أمر الامبراطور بعد ذلك بعض الأعيان بالقدوم إليه، واستدعى جون دوكاس، وميخائيل الذي كان المتحدث باسم [الهيئة؟]، وذلك بالاضافة إلى الخصي توماس، وكذلك نقفور الذي كنيته كاسباكس Kaspax وهو الذي كان قاضي الأحوال السرية، وقد وجهوا إلى ألكسيوس ثلاث تهمة، وأمروه بالرد على أية واحدة منها هو قادر أن يدافع فيها عن نفسه، لكنه عندما سمع التهمة، أقرّ بجرمه في الجميع، ورجاهم أن ينزلوا به العقوبة الصحيحة التي يستحقها، لكن بعد حلق شعره، وحضوره القديس، أشفق الامبراطور عليه، واكتفى بحلق شعره وجعله راهباً (١٦).

٧- بالنسبة لألكسيوس انتهى مصيره وقدره هنا. وبما أن القوات الهنغارية كانت تعبر باتجاه سيرميون، قام الامبراطور بارسال قوات إلى هناك، كانت تحت امرة عدد من القادة الرومان، وخاصة أندرونيكوس ابن أخي الامبراطور، الذي كان يكنى بـ «كونتوستيفانوس»، وقد سماه الامبراطور قائداً عاماً للأعمال الحربية، وقد تم توجيهه كيف يقوم بصف الرجال، وأين ستكون المعركة، كما لو أن الأمر رسم على صورة، وهكذا قام أندرونيكوس بعدما جاز السافا، وبات قريباً من معسكر الهنغار بالتصرف كما يلي: لقد أدرك أن ارسال جواسيس وكشافة — كما جرت العادة — إلى جيش العدو، لن يكون مجدياً، غير أنه أمر بعض الرومان الذين تقدموا أمام الجيش الروماني أن يحاولوا وهم عائدون جلب عدد من أفراد العدو معهم، وتنفيذاً لأوامره، عادوا ومعهم واحد من الأعداء، وسأله كونتوستيفانوس عن وضع الامدادات لدى الهنغار الذين قدموا إلى سيرميون، وعن خططهم، وأجابه هذا الرجل بصدق وأوضح له كل شيء حيث قال:

«بيننا سبعة وثلاثين قائداً يتولون قيادة هذه القوة، لكن دايونيسيوس له السلطة عليهم جميعاً، وعدد الجيش كله خمسة عشر ألف رجل فيهم فرسان مسلحون، ورماة، وفرسان خفاف، وهم شجعان جداً، يعتقدون أن الرومان لن يستطيعوا الصمود أمام أول حملة لهم.

وعندما سمع أندرونيكوس هذا، ترك الرجل يعود ليروي لدايونيسيوس، أن الامبراطور الذي لم يستطع تحمل الأذى الذي ألحقه بالرومان، قد تعهد بانزال العقوبة المناسبة بالهنغاربيده، وقاد الجيش الروماني، وهو شاكى السلاح، إلى خارج المعسكر، وجرى صفه كما يلي: أمر الكومان مع معظم القوات التركية وقليل من الفرسان الذين قاتلوا بالرماح، أن يشقوا الطريق، ثم تقوم كل الوحدات الرومانية بالهجوم من على الجناحين، وهي القوات التي كان يقودها كوغ فاسيل وفيلوكالس،

وذلك بالاضافة إلى الـ «تاتيكوس Tatikios» الذين يلقبون بـ «أسبيتس Aspietes»، وزحف من خلفهم الرجال وقد اختلط بهم النبالة ووحدة مسلحة من الأتراك، وتقدم خلف هؤلاء، وزحف من على الجناحين جوزف براينيوس وجورج براناس مع أخيه ديمتريوس، وقسطنطين أسبيتس السياسيستوز، ثم تلا هؤلاء أندرونيكوس الذي كنيته لامبارداس Lampardas الذي كان كاتب الامبراطور، و... (١٧)، مع نخبة من القادة الرومان والألمان والأتراك، وزحف وراء هؤلاء القائد أندرونيكوس [كونتوستيفانوس]، ومعه عدد كبير من الرجال الجديرين بالتقدير، الرجال الذين اعتادوا على الانضواء تحت قيادة الامبراطور عندما كان يذهب إلى الحرب.

وايطالين من قوات المرتزقة، وكذلك صربيين، ساروا خلفه، حاملين الرماح وترسة عريضة، وهكذا شرعت صفوف الرومان تأخذ طريقها نحو المعركة، وعندما وصلوا إلى المكان الذي أقام فيه داينيوسيوس النصب التذكاري، ترحلوا من على ظهور خيولهم، وانتحبوا بحرقة، وعاهد أحدهم الآخر، أن كل واحد منهم سوف يموت في سبيل ابن بلده وقرابته.

وعندما علم داينيوسيوس أن الرومان كانوا يقتربون، امتلاً شجاعة، وأمر الهنغار بكل قحة بأن يرفعوا كؤوسهم ويشربوها بصحة الرومان، فرفعوها، وشربوها مسرعين، ثم توجهوا نحو أسلحتهم، وأخذوا صفوفهم حسبها هو معتاد، فقد كان من عاداتهم دوماً أن يملأ الرجال النخبة بينهم الصفوف المتقدمة، وكان الامبراطور المدرك لهذا الأمر والعارف له منذ زمن طويل، قد وجه أندرونيكوس أن تكون صفوفه في الاحتياط، وهكذا عندما باتوا على مقربة من بعضهم بعضاً، أمر أندرونيكوس الوحدات الأمامية أن تطلق نساها نحو الهنغار، وعندما رآهم الهنغار حملوا عليهم، فقاموا بالفرار، لكن ليس نحو الخلف، إلى الجيش الروماني، بل بالحري

نحو الجناحين، وهكذا انقسموا على كلا الطرفين، وبذلك ترك الهنغار في مكان فارغ في الوسط بين الصفوف المقاتلة، لكن لدى حملتهم على بقية ساقية الرومان جعلتهم يديرون ظهورهم ويهزؤون بأقصى سرعة حتى وصلوا السافا، وصدد أخيراً اثنتان من الوحدات الرومانية التي كانت على اليسار، وكانتنا تحت قيادة كوغ فاسيل وتاتيكيوس، غير أن البقية جرفت جانباً، وقام ديمتريوس براناس، الذي ترك مع ثمانين من أتباعه الذين تفرقوا، بالالتحام مع العدو، وقد سقط هناك بعدما ناضل بشجاعة، ونال ضربة قاتلة على وجهه، وحدث أنه بعدما سقط أن أخذ أسيراً، وحمل إلى المعسكر الهنغاري، أما أخوه جورج، الذي أربعه تفوقهم العددي، فقد افتقر إلى الشجاعة من أجل الصراع.

وهكذا تحول الجناح الأيسر للجيش الروماني إلى الفرار، لكن الجناح الأيمن قاتل ميسرة الهنغار، وصدد العدو بشكل واضح نحو الورا، وعندما لاحظ داينيوسيوس هذا، فكر في مهاجمة الذين كانوا حول القائد أندرونيكوس، وبدأ الخوف على كل حال يستولي على كثير من أتباعه، وهم يقودون خيولهم، ولاحظ داينيوسيوس ذلك. فلامهم لجنهم، وفي الوقت نفسه، رجاهم بالبقاء هناك، وذلك خشية منه أن يجعلوا خوفهم ظاهراً للرومان، وتفهم أندرونيكوس لامبارداس الذي كان يحدث، وخشية منه أن تقوم الحشود التي مع داينيوسيوس، إذا ما تحولت إلى جهة أخرى، أن تقوم بالانقراض على القائد أندرونيكوس، لذلك قرر أن عليه الالتحام بداينيوسيوس أولاً، ولدى اصطدامهم ببعضهم بعضاً، ارتفع الضجيج، وسمعت الأصوات في كل مكان بسبب تحطم الرماح على الترس، وسقوطها على الأرض، ومع أن الصفوف التي كانت تحت إمرة براناس الآخر وجورج جاءت لمساعدة الرومان، فإن هؤلاء الرومان تولاهم الانهالك.

وعندما لاحظ القائد أندرونيكوس هذا، وخشية منه أنه إذا ما انهزم

الذين كانوا مع لامبارداس بشكل حاد، فإن الصراع كله سينصب عليه، لهذا اندفع نحو العدو بشدة، وقام بحملة هائلة، ونتيجة لذلك سقط للوهلة الأولى ثمانون من الرومان، لكن أكثر منهم كان الذين سقطوا من البرابرة، وتمكن الرومان، بفضل شجاعتهم، وثباتهم أثناء القتال، وقدراتهم الخارقة، تمكنوا أخيراً من صدّ العدو، وارغامه على الفرار، ووقعت مذبحة بين صفوف الأعداء، بلغت حداً مخيفاً، لدرجة أن السهول هناك غطيت بجثث القتلى، لأنه عندما انقصفت رماحهم، وتكسرت سيوفهم، حطم الرومان رؤوس هؤلاء الأشقياء بحراهم، ثم تمّ الاستيلاء على رايتهم، وكانت كبيرة جداً، حملها هؤلاء البرابرة على عربة، كما واستولي على حصان دايونيسيوس مع كامل سلاحه، ونجا هو نفسه من المخاطر بصعوبة، أنا غير قادر على وصفها، أما بالنسبة للبرابرة الذين فروا ووصلوا إلى النهر، فقد تولى أسرهم الاسطول الروماني، وجرى أسر خمسة من كبار قادتهم الذين يدعون «زوبان»، وأخذوا وهم أحياء، ومعهم حوالي ثمانمائة من العساكر، وكان بينهم أعداد كبيرة من النبلاء والرجال الأعيان، وسقط في هذا الصراع عدة آلاف، ولم يكن بين الرومان من لم يكن بطلاً، قام بأعمال مجيدة، لكن تميز بينهم بشكل خاص جون كونتوستيفانوس، وأندرونيكوس لامبارداس.

وعندما اكتمل نجاح الرومان هكذا، وكان الوقت يقارب منتصف الليل، عاد جند الجيش الروماني إلى المعسكر، يقودون معهم الأسرى الهنغار، وجلبوا حوالي الألفين من الدروع، ولم يكن من الممكن احصاء الخوذ والترسة والسيوف التي غنموها، وعسكروا على هذه الصورة تلك الليلة، ثم حملوا أسلحتهم عند اشراق الشمس، وتوجهوا نحو المعسكر الهنغاري، فوجدوه فارغاً من الرجال، لذلك نهبوه وعادوا، وعرفت الحرب ضد الهنغار نهايتها هناك (١٨).

٨- وصرف الامبراطور عنايته إلى أسوار القسطنطينية، التي تدمرت

بفعل الزمن في كثير من الأجزاء، وعندما عانت العاصمة من قلة المياه، قام بتنظيف الأبنية بكل عناية، ولدى ملاحظته أن الأقواس القديمة التي حملت الأبنية الناقلة للمياه إلى بيزنطة، قد سقطت منذ زمن طويل، وأنه سيكون من الصعب جداً إعادة بنائها، وأن ذلك يحتاج إلى وقت طويل، قام بعدما تفحص المكان الذي لم يكن على مسافة كبيرة من بيزنطة، وكان اسمه بيترا (١٩) Petra ، ببناء خزانات تحت الأرض، وقد أقيمت في منخفض وسط التلال على كلا الجانبين، ولهذا كانت ذات سعة كبيرة، ولوجود ماخذ كثيرة لها، وفجوات فقد تلتقت المياه التي نزلت إليها من خلال منحدرات وفتحات، وكأنها آلاف الأبنية، ونقلت هذه المياه إلى المدينة، بوساطة الطرق العادية التي كانت قائمة تحت الأرض.

واجتث الامبراطور من عادات الاتحاد الروماني، واحدة كانت من أكثرها ارباباً، وهي عادة تفتقر ولو إلى القليل من الشرعية، فما الذي كانه هذه العادة؟ هذا ماسوف أرويهِ الآن:

سببت حاجة الانسان للبقاء حياً ابداع أشياء كثيرة في طرق حياته، ولاسيما ارغام الكثيرين على التخلي عن حرياتهم وتأجيرها، حتى بعض الذين ولدوا من أسر كريمة — فكيف بك بالناس العاديين — خدموا أجراء لدى الذين كانت أوضاعهم أعلى، ومراتبهم أرفع، فكم هي كثيرة الشرور التي سببها الجشع الانساني؟ وكان الذين يتسلمون هؤلاء التعساء بعد شرائهم لخدماتهم يعاملونهم معاملة أشخاص شروهم بالفضة، وكان ايجار اليوم المدفوع مقابل الاكتراء، يعادل شراء انسان حر، وبذلك كان علامة على سوء الحظ، وود الذين تحملوا متاعب هذه العبودية لو يستطيعون رفضها، وعاملهم الذين اكتروهم وكأنهم عبيد آبقين، وفرضوا عليهم العقوبات لجرأتهم، ثم كان الحال مثل حكاية ايسوب Aesop، التي قعد فيها الأسد مريضاً في عرينه، ومضت الحيوانات إليه: وهكذا

مضى في إثر الرجال الأحرار أعداد كبيرة، لكن الذين خرجوا عبر الطريق نفسه لم يكونوا أبداً، وعلى هذه الصورة المربعة كانت هذه العادة، ورغب الامبراطور في اجتثاثها من وسط الدولة، لذلك أصدر كتاباً حرر فيه الذين كانوا بشكل طبيعي أحراراً، لأنه رغب في أن يحكم روماناً أحراراً، وليس روماناً أسرى.

ورسم الامبراطور في السنة الخامسة عشرة لحكمه بالأعتدي انسان على الديرة في بيزنطة، وذلك بالنسبة لممتلكاتها التي بحوزتها في أي مكان [آذار ١١٥٨]، وأكد هذه التقدمة بوثيقة، دعيت بشكل عام لأنها ممهورة بختم ذهبي بـ "Chrysbull" [الوثيقة الممهورة بالذهب]، ولهذا السبب مامن واحد من الرهبان يمكن أن يرى قابلاً أمام باب المحكمة، لأنه لم يعد هناك من سبب يدعو أحداً من رجال الحكومة للمثول أمام القانون معهم، هكذا باتت الأمور (٢١).

بما أن القانون عزل عدداً كبيراً من المجموع العام للأيام، مثل: الأيام التي يحتفل بها بذكرى تضحيات الرب وذلك من قبل المسيحيين، وكذلك الأيام التي تحلّد الرجال العظام [أي القديسين]، فقد نتج عن ذلك أن القضايا القانونية داخل الدولة بقيت معلقة بدون نهاية، ولذلك رأيت رجالاً أصبحوا شيوخاً دون أن يبت بقضايهم، لابل مات بعضهم والقضايا معلقة، غير أن القانون الجديد [آذار ١١٦٦] ألغى هذه الفوضى ونفاها من داخل الدولة الرومانية، لأن المرسوم الامبراطوري قضى ألا يشغل الاحتفال بأي عيد كل النهار، وقضى أيضاً بعدم السماح للقضايا بجرها من يوم ليوم وتأخيرها، وجرى تحديد الأيام التي يتوقف النظر فيها بالقضايا القانونية، بالأيام التي جلب فيها الرب شيئاً نافعاً لبني البشر، وتركت بقية الأيام كاملة للنظر في الأعمال القانونية، ففي الأعياد تم منع النظر بالقضايا صباحاً، لكن توجب أن تفتح المحاكم أبوابها طوال مابعد الظهر، مع السماح بالدخول إلى كل من أراد (٢٢).

ونقل الامبراطور إلى بيزنطة أيضاً الحجر المقدس، الذي كان منذ وقت طويل مضى في أفسوس [عرب سوس]، ووضعها هناك مع بقية الآثار المقدسة [١١٦٩]، فما هو هذا الحجر، وكيف وصل إلى بلاد أفسوس ومن أين؟ إن هذا مأسوف أحكيه الآن:

لقد كان بالنهاية تضحية المنقذ على الصليب، وعندما تسلمته أمه، مددته منكباً على وجهه، حسبما كانت العادة، وكان ذلك على هذا الحجر، وانكبت فوقه، وندبته بعمق، وهذا كان أمراً معقولاً، ووصلت الدموع التي انحدرت من مآقيها بسبب بكائها، إلى الحجر، وبقيت هناك دون أن تجف، وكان شيئاً اعجازياً، ثم كان — كما قيل — أن أخذت مريم المجدلية الحجر، وأبحرت تريد روما، حتى تلتقي بالقيصر تاييروس، من أجل أن تتقدم بشكوى ضد بلياط واليهود لأن يسوع قد قتل ظلماً، وعندما توقفت لسبب ما في أفسوس، تركت الحجر هناك، ثم غادرت وذهب إلى روما، ومنذ ذلك الحين إلى الآن والحجر موجود في أفسوس، وعندما حمل من هناك، ووصل إلى منطقة داماليس Damalis للعبور به من هناك إلى القسطنطينية، خرجت مسيرة رائعة من بيزنطة استقبلته، وضممت المسيرة أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وجميع رجال الدين والرهبان، وتقدم قبل ذلك لوقا، الذي أدار الكنيسة، وكذلك الامبراطور، كل على انفراد، دون بقية الرسميين، وقام الامبراطور بالحقيقة برفع الحجر، ووضعه على كتفه، فهو قد اعتاد على التواضع أكثر من اللازم في مثل هذه الحالات وعبر عن تواضع عظيم وتعبد كبير (٢٣).

٩- نجت مصر في تلك الأيام من مخاطر الاحتلال من الرومان، وبرهنت على قدرتها على الاستمرار والبقاء حية، بطريقة أنا مقبل على شرحها: كانت فيما مضى تشكل جزءاً من المملكة الرومانية، وقد زودت هذه المملكة سنوياً بمبالغ ضخمة جداً، وعندما تعرضت آسيا بشكل حاد للغزو، وسيطر عليها العرب آنذاك، تم الاستيلاء على مصر، ووقعت

تحت حكم المشاركة، وتطلع الامبراطور بشكل كبير لاعادة السيطرة على مصر، لاسيما بعدما نجح في استرداد كثير من المناطق في الشرق لصالح الرومان، ولهذا الغرض بعث إلى مصر رسلاً، أمرهم أن يذكروا تلك البلاد بعادتها القديمة بدفع الجزية، التي تزن كثيراً، والتي جرت العادة بوصولها إلينا، وإذا مارفضت مصر، فإنه يعدها بأنه قبل مضي وقت طويل ستعرض للحرب، فلقد كان هذا ماحمله الرسل، ولأن المصريين رفضوا هذا بفعالية، بنى الامبراطور أسطولاً من المراكب، وناقلات الخيول، مع عدد كبير جداً من السفن الحربية، وحمل جيشاً على هذا الأسطول، وأرسل به إلى مصر [١١٦٩]، وتولى قيادة هذه الحملة أندرونيكوس كوتتوستيفانوس السالف الذكر، والذي كان قد أصبح منذ زمن الدوق الأعظم [الأميرال العظيم]، وأبحر الأسطول مسرعاً إلى مصر ووصل إلى هناك في أقرب وقت، وبعث إلى فلسطين، فاستدعى الملك الذي كان هناك [عموري الأول] للالتحاق بالرومان والمشاركة في هذا الصراع، حسبما قضت المعاهدة.

وبالنظر لتأخر الملك، وخشية من أندرونيكوس، أن يبدد الوقت هناك بلافائدة، قرر انزال الجيش إلى اليابسة، وقد استطاع بلا جهد الاستيلاء على مدينة تنيس (٢٤) Tenesion ، وقام بغارات نحو الأمام، فاستولى على المنطقة، وعندما وصلت الأخبار باقتراب وصول الملك، نقل ساحة الحرب إلى دمياط، وهي مدينة مليئة بالسكان وغنية جداً، وخاض الرومان هناك معارك مخيفة، لكن بدون نجاح، لسبب أنا مقبل على ذكره:

لقد تمّ الاتفاق بين الامبراطور والفلسطينيين الذين شاركوا في الحملة على مصر، أن يتسلم الرومان نصف حصّة من البلاد المستولى عليها، وللفلسطينيين البقية، ولهذا بها أن الرومان وصلوا أولاً إلى مصر، قام الملك فقرر خيانة التأخر عن الحرب، ففي هذا الحال في الوقت الذي يتحمل فيه الرومان جميع المخاطر، يأتي هو بالنهاية، ويصير ممكناً له الاستيلاء

على البلاد بدون جهد، ولأنه وصل متأخراً، أُجّل القتال بشكل مستمر، ونصح الرومان بفعل ذلك، وفيما كان الرومان لا يهتمون إلا قليلاً بكلماته، خاضوا يوماً صراعات بطولية، ولستُ على دراية فيما إذا كان الفلسطينيون — كما قلت — قد رغبوا في أن يتحمل الرومان مسؤولية المخاطرة، حتى يمكنهم التمتع بدون جهد بالنصر، أو أنهم كانوا يخشون من استيلاء الامبراطور بشكل كامل على مصر ولا يريدون ذلك، إن هذا ما لا أستطيع قوله، ويقال إن الذين كانوا في داخل دمياط قد أفسدوا الملك بالمال، وأقنعوه بفعل ذلك.

ولدى ملاحظة الرومان أنهم غير قادرين لوحدهم على متابعة الحرب، انسحبوا وعادوا إلى بيزنطة، وفي الطريق فاجأتهم عاصفة، ففقدوا عدداً كبيراً من السفن، وهكذا حظيت الحملة الرومانية على مصر بهذه الخاتمة، وخشية من أهل مصر، أن تأتي حملة رومانية ثانية ضدهم، أرسلوا رسلاً إلى الامبراطور، وأعلنوا عن موافقتهم على ارسال مبلغ محدد من الذهب سنوياً إلى الرومان، ورفض الامبراطور السفارة، وأعاد الرسل بدون نجاح، ذلك أنه كان عازماً على الاستيلاء على البلاد بأكملها من جديد (٢٥).

١٠- وقدّم في الوقت نفسه ملك فلسطين إلى بيزنطة ليتقدم بمطالبه إلى الامبراطور [١١٧١] وحصل على ما طلبه، ووافق على عدد من الأشياء الكثيرة، بما في ذلك خضوعه للامبراطور حسب شروطه (٢٦).

وأمر في ذلك الوقت الامبراطور مانويل بايداع البنادقة الذين عاشوا في بيزنطة وبقية الأراضي الرومانية، في السجن العام، وأمر بمصادرة ممتلكاتهم لصالح خزينة الدولة، وذلك لسبب أنا مقبل على حكايته:

قامت أراضي البنادقة على الجزء الأقصى من خليج يونيان [البحر الأدرياتيكي]، وتمتد بعيداً عن الساحل، على شكل حزام بحري، مثل شاطئ رملي، وغالباً ما يتقدم البحر خلال النهار، مما يجعل الملاحة ممكنة

خلال ذلك الوقت، ثم يتراجع ثانية، جاعلاً الأرخيبيل لا يمكن عبوره لابالسنفن ولا من قبل الناس، وهذه الدولة فاسدة الأخلاق، لا تعرف الخجل ووقحة أكثر من سواها، لأنها مليئة بالبحارة الرعاع (٢٧)، وبما أنها قدمت فيما مضى قوة حليفة إلى الامبراطور ألكسيوس الأول، عندما قام روبرت كويسكارد الواسع الشهرة بالعبور من ايطاليا إلى دورازو [دورس الحالية]، وحاصر ذلك المكان [١٠٨١]، وقد تلقوا مقابل ذلك تعويضات، ولاسيما بمنحهم مساحة محددة في بيزنطة، وهي باتت تعرف بشكل عام باسم الامبولون Embolon [الحي] (٢٨)، وكانوا هم دون سواهم من بين الايطاليين الآخرين والتجار البيزنطيين، لا يدفعون في حيزهم أياً من العشور عن تجارتهم للرومان، وجعلتهم ثروتهم الهائلة التي حصلوها من ذلك المصدر بسرعة متعجرفين، فقد اعتادوا على معاملة الناس مثل العبيد، ولم يقتصر تصرفهم هذا على العامة، بل تجاوزوا بذلك نحو الذين حازوا على مجد مرتبة سيباستوس، والذين تقدموا نحو أعلى المناصب الرفيعة بين الرومان، فلهؤلاء وجهوا الالهانات.

وغضب الامبراطور جون من هذا السلوك فطردهم من الدولة الرومانية [١١٢٢]، ولذلك رغبوا وتشوقوا للانتقام من الرومان، وبعدها قاموا بإعداد أسطول من سفنهم، أغاروا على الأراضي الرومانية واستولوا على كيوس، ونهبوا جزيرة رودس الشهيرة وكذلك لسبوس Lesbos، وتوقفوا عند الأراضي الفلسطينية، فحاصروا صور واستولوا عليها، وأقنعوا سواهم بالتعاون معهم، ومارسوا حملة من القرصنة في البحر لم تعرف الرحمة على الجنس البشري [١١٢٢-١١٢٥]، ولهذا تقبلهم الامبراطور على أساس الشروط المتقدمة، ثم رقاهاهم إلى مزيد من المجد والفخار [١١٢٦] (٢٩).

إن الرغبة الصادقة التي بدت أنها ناجحة، أمكن للحماقة ازلتها ومحققها، ولهذا وجهوا ضربات قاسية لعدد كبير من أبناء الأسر الذين كان

بعضهم أقرباء الامبراطور عن طريق الدم، وقاموا بشكل عام باهانتهم بشكل وحشي، حتى في أيام الامبراطور مانويل تابعوا ذلك ولم يكونوا أقل في ممارسة الأعمال نفسها، واتخذوا لأنفسهم زوجات رومانيات وسكنوا مثل الرومان الآخرين في بيوتهم خارج منطقة السكنى الممنوحة إليهم من قبل الامبراطور، ولم يستطع الامبراطور تحمل هذه الأشياء، لذلك شرع بايقاع العقوبات بهم بسبب أعمالهم السيئة، ولقد عُرف البنادقة القدماء باسم «البرجوازية» وذلك نقلاً عن اللغة اللاتينية، ذلك أنهم تعهدوا بالحفاظ على طاعة الرومان، ماداموا يعيشون بينهم لأن اسم [برجوازية أو مواطنين] يفسر هكذا، وقد ميز الامبراطورين هؤلاء وبين البنادقة الذين جاءوا إلى بيزنطة للعمل بالتجارة.

وقبل مضي وقت طويل، ثار البنادقة ضد اللومبارد [أي الجنويين]، ذلك أنهم كانوا غاضبين منهم، ولذلك دمروا بيوتهم إلى الأساسات، وألحقوا بهم أذى كبيراً [١١٧٠]، واستدعاهم الامبراطور إلى مجلس القضاء، وقضى عليهم بإعادة بناء بيوت اللومبارديين، وأن يعيدوا إليهم على الفور ما أخذوه منهم، غير أن البنادقة لم يرغبوا في فعل أي من هذه الأشياء، وهددوا بالحاق الضرر بالرومان، وذكروه بالذي فعلوه عندما كان الامبراطور جون مايزال حياً، وعندما فهم الامبراطور هذا، قرر ألا يتأخر بالعمل، ولأنه عزم على أخذهم في اليوم نفسه ووضعهم داخل الشبكة، بعث برسائل إلى جميع الأراضي الرومانية، حيث حدد للذين تولوا الحكم في تلك المقاطعات الساعة التي توجب عليهم فيها إلقاء القبض على البنادقة، وهكذا حدث في وقت واحد أن ألقي القبض على البنادقة الذين كانوا في بيزنطة، وكذلك على الذين انتشروا في أقصى زوايا الأراضي الرومانية، وقد تلتقتهم السجون ومعها الديرة [١٢ آذار ١١٧١].

وبعد مضي بعض الوقت، وبما أن السجون اكتظت بمثل هذه الحشود، تجرأ البنادقة (لأنه يبدو أنه مامن شيء أصعب من هزيمة

الناس اليائسين) تجرأوا على عمل مايلي:

بعدها قدم كل واحد نفسه بمثابة ضمانة للامبراطور من أجل الآخر، كانوا قادرين على الخروج من السجون، وكان بينهم رجلاً كان متميزاً من حيث الأسرة ومن حيث الثروة، فابتاع نفسه من الخزينة مقابل مبلغ كبير مع سفينة ذات حجم كبير، لم ينزل مثلها قط في ميناء بيزنطة، ولهذا عهد إليه الامبراطور بالعناية بها، فتآمر مع البنادقة أنهم عندما يصعدون إلى ظهرها، سوف يبحرون بها ليلاً نحو بلادهم، فتوافقوا على هذا الاقتراح، وعندما هبت ريح مناسبة، قفزوا إلى ظهرها، وغادروا هارين، وما ان علم الرومان بهذا حتى طاردوهم، وباتوا على مقربة منهم في مكان قرب مضيق أبيدوس [الدردينيل]، وهنا عزموا على احراقهم بالنار الاغريقية، لكن بما أن البنادقة كانوا على دراية بطرائق الرومان، فقد قاموا باجراءات جريئة، وذلك بأن نفعوا بعض الأقمشة بالخل، ولفوا بها جميع السفينة، وبما أن الرومان كانوا غير قادرين على النجاح (لأن النار التي قذفت باتجاه المراكب، إما وقعت أبعد مما هو ضروري، أو انها لم تصل إليها، لابل حتى وإن وصلت صدمت بوساطة الأقمشة وانطفأت في الماء عندما سقطت) عادوا مخفقين: -

وبعدما مضى وقت ليس بطويل على وصول البنادقة إلى بلادهم، بنوا أسطولاً، وقاموا بمقاتلة الرومان [١١٧١-١١٧٢]، وهاجموا أولاً يوريبوس Euripos [أي يوبيا]. لكن عندما صدوا سارعوا إلى جزيرة كيوس، وسبب صدمهم أن الامبراطور مركز حاميات من الجند كافية في تلك المدن، ولدى وصولهم إلى كيوس سحبوا سفنهم وربطوها هناك، ثم تقدموا لنهب الموقع، وعلى كل حال لقد واجهوا هناك قوة كانت قد عبرت إلى الجزيرة، لأن الامبراطور كان متوقفاً ماحدث، وعندما وقعت الاشتباكات، فقدوا عدداً كبيراً من رجالهم، وأداروا ظهورهم وتراجعوا نحو سفنهم، وفكر الامبراطور بقهرهم بالقوة، ولذلك خطط لارسال قوة

عسكرية، وبحرية ضدهم، لكن كان هناك واحداً، اسمه هرون، شغل منصب أكولاوثوس Akolouthos [قائد حرس البنادقة]، وكان والحق يقال شخصاً مقامراً ومغامراً، غير أنه كان دوماً معادياً لشؤون الامبراطور، وقد اعتقل مراراً بسبب سوء أفعاله، وأدين لتكريس نفسه لأعمال شيطانية، لكن هذا حدث فيما بعد، عندما تناولت العدالة المجرمين، أما الآن، فإنه بسبب اقدمه على افشاء الخطة إلى دولة البنادقة، جلب الاخفاق لمشروع الامبراطور.

وأبحر الأسطول الروماني ليصل إلى ماليا Malea (وهذا رأس [اللبلونيز] يفصله عن جزيرة كيوس رحلة عدة أيام) ليكمن هناك منتظراً البنادقة، وكان البنادقة يتوقعون أن يتم صدهم ثم طردهم بوساطة الرجال الرومان الذين — كما قلنا — كمنوا لهم فوق الجزيرة، واشتبكوا معهم من مواقع متفوقة، ثم إنهم بسبب تغلب الرومان عليهم في القتال على الجزيرة، وبذلك عانوا من خسائر عظيمة نزلت بجيشهم، وبسبب أنهم علموا أن الأسطول الروماني كان على الطريق نحوهم، قاموا في آخر النهار بمغادرة الجزيرة، ووصل الأسطول الروماني عند الفجر إلى ليسبوس Lesbos، وعندما سمعوا أخبار ما حدث قاموا بمطاردتهم، غير أن [الأسطول البيزنطي] لم يكن قادراً على تقرير الأمور في معركة تصادمية، لأن العدو تابع فراره ولم يتوقف، وتمكنوا من قهر الكثير من سفنهم الحربية واغراقها مع جميع ملاحها، لكن البقية وصلت هاربة إلى بلادها وبالنظر لنقص الرجال لديهم، فروا مرعوبين، حيث انه عندما حدث واصطدموا مع جماعة من أهل إبيدامنوس Epidamnos [دورازو] لم يستطيعوا أسر واحد منهم بالقوة (٣٠).

وحصد البنادقة نتيجة تبجحهم ورعونتهم، وأراد الامبراطور أن يسخر من تفريطهم فكتب إليهم كما يلي:

«أظهرت دولتكم منذ زمن بعيد جهالة عظيمة فيما يتعلق بما ينبغي صنعه، لأنكم عندما تقاطرت من قبل على الأراضي الرومانية بمثابة آفاقين كنتم وقتها، والحق يقال، قد استولى عليكم الفقر، ومع هذا أظهرتم استخفافاً عظيماً نحو [الرومان]، وكانت لديكم مطامح كبيرة لخيانتهم لصالح أعدائهم، ومن فضول القول أن نعدد ونذكر ماهية أوضاعكم الحالية، وتذكروا أنكم قد طردتم بحق وعدل من أراضيهم، وعبثاً فعلتم حين قررتم أن الصراع معهم سيكون على مستوى واحد، فأنتم دولة لاستحقون من حيث القدم هذا الاسم، ولقد يتم الآن تتمتعون أخيراً ببعض الشهرة، لكن ذلك على حساب الرومان، مع أنكم لاتماثلونهم في القوة، لتأمل هذا، لقد يتم مضحكة من كل جانب، فكيف حدث هذا؟ إنه لا يمكن حتى بالنسبة للنخبة بين الدول، في أي مكان، على الإطلاق، إثارة حرب ضد الرومان دونها عقوبة»، هكذا كتب إليهم الامبراطور، وبهذه الشدة، وبما أنهم كانوا غير قادرين بعد على القتال مع الرومان بوساطة أسطول كبير، قاموا منذ ذلك الحين بالتربص والانتظار، ونشطوا كقراصنة حتى عانوا من ضربة ثانية (٣١).

وهكذا سارت هذه الأمور، وبدأت الأحوال في كليكية تصبح في أوضاع سيئة، لأنه بعدما قضى طوروس أجله [١١٦٨]، استولى أخوه مليح على المنطقة، وبدأ يتصرف بشكل لم يكن أقل سوءاً من أخيه، نحو الرومان، وجرى اختيار ميخائيل براناس أولاً حاكماً للكليكيين [حوالي ١١٦٠-١١٦١]، ثم جاء بعده أندرونيكوس الذي لقبه يوفوربينوس، وقد ذكرنا من قبل أن كان ابن عم للامبراطور [١١٦٢]، ولكن بما أنه لم يحقق شيئاً يستحق الذكر هناك، فقد باتت أحوال الايزوريين منهارة، ولذلك تتابع الحكام بكثرة، وخلف أحدهم الآخر بالحكم، وكان بينهم قسطنطين، الذي كنيته كالامانوس، متميزاً، ومع ذلك لم يحقق شيئاً [١١٦٣-١١٦٤] وثانية حوالي [١١٧٣]، وكان

كالامانوس بالحقيقة هو الذي أزعج الأرمن في كثير من الطرق، وقد أصيب بجرح كبير في إحدى المصادمات (٣٢).

وجاء في هذه الآونة [هنري الأسد] دوق السكسون، وهم شعب كبير العدد ومزدهر، إلى بيزنطة، ومعه حاشية عظيمة، وذلك من أجل مصالحة ملك ألمانيا [مع مانويل] (لأن كل واحد منهما حمل شكوكاً عظيمة تجاه الآخر)، وبعدها أنجز ماجاء من أجله، غادر عائداً [١١٧٢] (٣٣).

وفي هذه الآونة، تطلع الصربون نحو الثورة (٣٤)، وذلك بعدما ضغط عليهم البنادقة كثيراً في هذا الاتجاه، وبما أن ستيفن [اسطفان الثالث] الذي حكم هنغاريا، قد غادر هذه الحياة [١١٧٢]، فقد أصبحت الأمور هناك مليئة بالخليان، وتنبه الامبراطور للمخاطر، فذهب إلى سارديكا، وعندما كان مقيماً هناك، راسله الهنغار، وسأله ارسال بيلا، ليكون ملكاً عليهم، لأنه بعدما مات ستيفن، تطلع معيار العدالة نحوه، وكان بيلا قد أفرد من قبل ليكون صهراً للامبراطور — كما ذكرنا في الروايات المتقدمة — ولكن بما أن قانون القرابة كان يمنع ذلك، فقد تزوج أخت الامبراطورة، وبناءً عليه، تمتع، بعدما تمّ إعلانه قيصرًا، بأعلى رتبة عرفتها بيزنطة آنذاك، ثم كان بعدما سباه مانويل ملكاً، أن أرسله إلى هنغاريا مع زوجته، إنما بعدما تعهد بالأيمان أن يرعى مادام حياً ويحافظ على كل ما فيه فائدة للامبراطور وللرومان، ورافقه إلى هناك ممثلاً للامبراطور، ومساعداً له في عمله: جون [كومنينوس] البروتوسيباتوس، مع آخرين من الأرستقراطية (٣٥).

وبعدما ثبت الامبراطور أركان بيلا بالسلطة، انصرف نحو دولة الصرب، وكان متشوقاً للانتقام منهم بسبب تسرعهم وحمافتهم، وحدث أمر، أنا نفسي تتملكني الدهشة نحوه، هو أن الجيش لم يكن قد اكتمل اجتماعه، ومع هذا قام الامبراطور بغزو تلك البلاد ومعه آلاف قليلة من

الجنود، على الرغم من كون البلاد بلاد منحدرات وشعاب، وقد زحف الامبراطور نحو الأمام ليقاتل الزوبان العظيم، ومع أن هذا جمع حول نفسه حشوداً هائلة من القوات الحليفة من كل جانب، فقد هرب على الفور، لأن الرعب استولى على روحه، وأرسل رسله إلى الامبراطور، وسأل أن يحظى بعفو الامبراطور عن أعماله الشريرة، وعندما أخفق في اقناع الامبراطور بهذا، سأل عما إذا كان ممكناً له أن ينال اجتماعاً بالامبراطور، دون أن يلحقه أذى أو ضرر شخصي.

وبناءً عليه، عندما وافق الامبراطور، جاء واقترب من فسطاط الامبراطور وهو مكشوف الرأس والذراعين حتى المرفقين، وكان حافي القدمين، وقد ربط حبلاً حول رقبته وحمل سيفاً بيده، وقدم نفسه إلى الامبراطور ليفعل به ما يشاء وليعامله حسبما يرغب، وعطف عليه مانويل، وألغى التهم المثارة ضده، وبعدما نجح الامبراطور على هذه الصورة، غادر بلاد الصرب، وكان برفقته الزوبان العظيم (٣٦)، وحدث في هذه الأثناء أن ألقى القبض على هرون، الذي ذكرته من قبل، وسملت عيناه للأسباب التي تقدم ذكرها.

١٢- هكذا مضت الأمور في الغرب، لكن آسيا عانت من المصاعب ثانية، لأن نور الدين أتابك حلب، والسلطان الذي حكم ليكانيا [أي قلع أرسلان الثاني صاحب قونية] ومليح مقدم الأرمن، وحاكم أنقرة وبقية غالشيا وافقوا على شيء واحد، وهو القيام بحملة ضد الرومان [١١٧٣] (٣٧)، ولهذا زحف الامبراطور مسرعاً من الغرب وعسكر في أحد الأماكن حول فيلادلفيا.

وفيمما هو مشغول بهذا، جاء الألمان والبنادقة وحاصروا أنكونا، بعضهم بالبحر، والبقية بوساطة جيش بري [١١٧٣]، وكان واحداً من الرجال بينهم [كرستيان أوف مينز] الذي حمل رتبة أسقف، هو الذي تولى قيادة

الألمان، وبعد مضي بعض الوقت على الحصار، نقصت الحاجيات في أنكونا، وبات من المتوقع سقوط المدينة خلال وقت قصير، وعلى كل حال، كان هناك امرأة، ذات أصل ايطالي [ألدرودا فرانجيبيين AI- druda Frangipane كونتية بيرتينورو Bertinoro]، وكانت أكرم من أي واحد آخر، ولاسيما الرجال، ونظراً لأنها كانت محرومة من زوجها، فقد حافظت على حياة نقية منذ ذلك الحين فصاعداً، وعندما علمت بحقائق الأمور المتعلقة بأنكونا، وأنها باتت على شفير الهاوية، امتلأت غيرة (لأنها حافظت على صداقتها مع الرومان)، وبادرت مسرعة لمساعدة المدينة من منفذ من داخل ممتلكاتها، وبحكم أنه لم يتوفر لديها ما يكفي من ضروريات الحرب، أوقفت أولادها [أي ممتلكاتهم] وبذلك قدمت كميات كبيرة من الذهب، وكتبت إلى أهل المدينة، وقالت إنه ينبغي عليهم أن يحافظوا على شجاعتهم عالية، وألا يتخلوا عن أنفسهم إلى العدو، وعندما علم شعب أنكونا بهذا، ازدادت شجاعتهم وخططوا لمهاجمة الأعداء، وما ان لاحظ الأعداء ذلك حتى بادروا إلى تقليص انتشارهم، وفي الوقت نفسه، قامت بعدما عينت قائدة للمدينة، بتوحيد رجال أنكونا مع جيشها، وعندما تم الهجوم، لم يستطع الألمان الصمود أمام المهاجمين، فهربوا أمام حشود امرأة وفقدوا العديد من رجالهم، وكاد قائدهم الأسقف أن يقع بالأسر، لولا أنه نال السلامة بالفرار، وما كان منها إثر هذا إلا أن تحولت ضد البنادق، الذين حاصروا المدينة — كما ذكرنا — وهاجموا من جهة البحر، وبعدها تغلبت عليهم بالقتال، عادت إلى المدينة، وهي تهلل باسم الامبراطور العظيم، مع هتافات مديح له (٣٨).

وخطط الامبراطور الذي كان معسكراً — كما ذكرنا — في فيلادلفيا، لايجاد طريقة يتمكن فيها بسهولة من ابعاد البرابرة المذكورين عن بعضهم بعضاً، وفي الحقيقة كتب إلى سلطان قونية، ووبخه لقلّة وفائه،

وسأل عن السبب الذي أدى به إلى اعلان الحرب بشكل مفاجيء ضد الرومان، ولقد تعلل بعدد كبير ومتنوع من المعاذير وقال إن خليفتهم (٣٩)، وهو أعلى رجال الدين بينهم، كان غاضباً منه، لأنه وافق على هذا الحد من الصداقة مع الرومان، ولقد كان هذا ماقاله، وقد أعاد الرسول فارغ اليدين، وعندما سمع الامبراطور بهذا، رد على ذلك بارسال سفارة ثانية، وكتب إليه هكذا:

«إذا كان قد بدا لك منذ بعض الوقت الذي مضى أن تتحد مع الآخرين من أتباعك، في سبيل مهاجمة الرومان، تخل عن حماقتك وتسرعك، وأقم حرساً على بلادك، لأن الجيش الروماني سوف يصل إليها خلال خمسة عشر يوماً»، وعندما تسلم السلطان هذه الرسالة، ارتجف قلبه رعباً، وتخلّى عن خططه، وبحث في شروط للسلام من أجل المستقبل، وبالنسبة للفئات التركية التي لم يتأكد لديها أمر المؤامرة، انفصلت، لأن شطراً كبيراً منها تخلّى عن السلطان والتحق بالامبراطور (٤٠)، ولقد ازداد الامبراطور فخاراً بهذا النصر الذي ناله دون بذل للدماء، وقام إثر ذلك بأخذ طريق العودة إلى القسطنطينية.

وعلم بهذا ملك فلسطين مع أمير أنطاكية، فامتلاً لذلك بالشجاعة، وتحركا ضد برابرة حلب، وألحقا بهم أضراراً بالغة (٤١).

١٣- وقام الامبراطور في هذه الآونة، فصنف بنفسه الخطاب الذي سيلقيه في المجلس، ولم يصنّفه بالتعاون مع العاملين (٤٢)، الذين اعتادوا على املائه وكأنه من عند الامبراطور، وكانت مقاصده عميقة التفكير، انطلقت من روح على درجة عالية من النبيل، وقد زود الخطاب بما فيه الكفاية من الأفكار، وجّهز بعدد كبير من الحجج المنطقية، وكانت صياغته نقية، وأسلوبه بسيط، وباختصار لم يكن مزوقاً، بل كان طبيعياً، يعبر بوضوح عن كاتبه، فلقد كان الامبراطور، كما قلت مراراً، شخصاً

لا يمكن مقارنته بأحد في القدرات الطبيعية، فلقد لاحظت أنا شخصياً، عندما ناقشت معه مراراً كتابات أرسطو، أنه تمكن بشكل طبيعي من حل الكثير من المسائل العميقة المختلف حولها، وهذا أمر أعتقد أنه لم يتهدأ مطلقاً، وكان ممكناً لأي واحد آخر، ولقد تمكن ببساطة رائعة من توضيح عدد كبير من النقاط في الكتابات المقدسة، التي بقيت حتى الآن بدون حل، أو أنها لم تفسر تفسيراً صحيحاً، وفي الحقيقة يبدو لي أن كتابة هذه الأشياء هنا، معارض لأحكام التاريخ.